... «اللّهم ارحَم سَعْداً وآل سَعْد»...

كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه قد هيّأ راحلة لمتاع رسول الله ﷺ في حجّة الوداع ، وعند عودتهم بعد الحجّ ، نزلوا في موضع ليستريحوا ، فأوصىٰ أبو بكر غلاماً له برعي البعير ، فغفل الغلام عن البعير حتىٰ نَدَّ عنهم بعيداً.

ولما أزمعوا علىٰ الرحيل ، أخذ أبو بكر يلوم غلامه ويعاتبه ويخاصمه ، علىٰ فعله ، وبينما هم يبحثون عن البعير ، جاء سعد بن عبادة رضي الله عنه وولده قيس بزاملةٍ[1] إلىٰ رسول الله ﷺ ، وكان رسول الله قد وجد بعيره.

فقال سعد: يا رسول الله ، هذه زاملة مكان زاملتك ، فشكرهما رسول الله ﷺ وقال: «قد جاء الله بزاملتنا، فارجعا بزاملتكما، بارك الله عليكما».

ثم قال: «أما يكفيك يا أبا ثابت ـ ويقصد سعداً ـ ما تصنع بنا في ضيافتك منذ نزلنا المدينة؟».

فقال سعد: يا رسول الله ، المنّة لله ولرسوله ، والله يا رسول الله لَلَّذي تأخذ من أموالنا أحبّ إلينا من الذي تدع.

فقال الرسول صلوات الله عليه: «صدقتم يا أبا ثابت ، أبشر ، قد أفلحت ، إن الأخلاق بيد الله ، فمن شاء أن يمنحه خُلقاً صالحاً منحه ، ولقد منحك الله خُلقاً صالحاً».

فقال سعد: الحمد لله هو فعل ذلك.

---

(١) هي: البعير الذي يُحمل عليه الطعام والمتاع.

وكان سعد بن عبادة يُكرم رسول الله ﷺ منذ نزل المدينة إلىٰ حين وفاته، وكان يبعث بكل يوم عند المساء جفنةً كبيرةً فيها لحم وثريد ، ولم تنقطع يوماً واحداً ، تدور علىٰ حجرات رسول الله ﷺ ، كل يوم عشاء رسول الله ﷺ من بيت سعد، يأكله الرسول ﷺ أو يُعطيه أهل الصُّفَّة.

وإذا كان الرسول ﷺ في سفرٍ أو غزوةٍ ، وكان سعد معه فإن عشاءه من سعد ، ولا تنقطع الجفنة عن حجراته ، وكذلك كان سعد يطعم جيش رسول الله ﷺ ، فقد أرسل سعد مع ابنه قيس ثلاثين بعيراً تحمل تمراً إلىٰ المسلمين في غزوة حمراء الأسد ، كما أرسل التمر إلىٰ المقاتلين في غزوة بني قريظة ، وفي غزوة ذي قرد قام سعد مع ثلاث مئة من قومه يحرسون المدينة، وبعث إلىٰ المجاهدين مع رسول الله ﷺ بأحمالٍ من التمر ، وعشرة من الإبل تُذبح للعسكر مع ابنه قيس ، فقال الرسول ﷺ: «يا قيس ، بعثك أبوك فارساً ، وقَرَىٰ المجاهدين ، وحرس المدينة من العدو ، اللهم ارحم سعداً وآل سعد»[1].

أجل يا رسول الله!

إن البريّة يوم مبعث أحمد ... نظر الإلٰه لها فبدّل حالها
بل كرّم الإنسان حين اختار من ... خير البرية نجمها وهلالها

* * *

(١) طبقات ابن سعد: ٢/ ١٤٣ ، الإصابة: ٣/ ٨٠.